الدرس الرابع:

الصّـراع اللّغـوي: طبيعته وأسبابه

يقول ***ابن حزم الأندلسي***: " إنّما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها، وفراغهم. وأمّا من تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذّل وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربّما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبُيور علمهم (..) وإنّ اللغة يسقط أكثرها بسقوط أهلها ودخول غيرهم عليهم في أماكنهم، أو تنقلهم من ديارهم واختلاطهم بغيرهم".

ويقول ***علي عبد الواحد وافي***: "من المقرّر أنّ أي احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين – أيًا كان سبب هذا الاحتكاك، ومهما كانت درجته، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة – يؤدّي لا محالة إلى تأثّر كلّ منهما بالأخرى، وغني عن البيان أنّه من المتعذّر أن تظلّ لغة ما بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى. ولذلك كانت كلّ لغة من لغات العالم عرضة للتطوّر المطرد عن هذا الطريق".

ويذهب ***لويس جان كالفي*** إلى تسمية الصراع اللغوي بـ حرب اللغات/ ***guerre des langues***، ويعرّفها بقوله: "هي الصراع ما بين اللغات بشقيه الداخلي والخارجي؛ أي في الشّق المتعلّق بالنظام الدّاخلي للغة وببنيتها وبتطوّرها، وفي الشّق الخارجي منها في علاقتها بغيرها. وهذه الحرب حرب بالمعنى المجازي حينًا، وحرب بالمعنى الحقيقي في أغلب الأحيان".

بناء على هذه الأقوال، سنعتبر أنّ اللغة تمرّ كبقية الكائنات بمراحل، ولادة فقوة ثم ضعف، إنّها كائن اجتماعي تقوم بالمجتمع، تتغذى به، ولا يمكن قيام المجتمع دونها، وقد يحدث أن تقوم لغتان في مجتمع واحد، فتتأثر كل واحدة منهما بالأخرى، وينتج عن ذلك ما يسمى بالصّراع اللّغوي. وكبقية الكائنات، أفرادها وجماعاتها، تحتكُّ اللّغات فيما بينها، تتصارع وتتنازع على البقاء، وتسعى وراء الغلبة والسيطرة. وقد تكون الغلبة لأحد الطرفين، فيقضى على الطرف الآخر تمامًا، كما قد يتساوى الطرفان، فيظل كل واحد منهما محتفظًا بوجوده ومميّزاته.

العوامل المتحكّمة في الصراع اللّغوي :

ينشأ الصّراع اللّغوي عن عوامل كثيرة أهمّها:

1. أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله:

ويحدث إثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة، وينتج عن هذه الحالة أحد الاحتمالين الآتيين:

1. أن تنتصر إحدى اللّغتين على الأخرى، وتصبح اللغة السائدة بالمجتمع.
2. أن تتساويا في القوّة، فتعجز إحداهما عن هزيمة الأخرى، فتتعايشان معًا.

ويتحكّم في هذه النتيجة أحد العاملين التاليين، أو هما معاً:

التقدم الحضاري.

التفوق العددي.

1.1. *في الاحتمال الأول*: (التغلّب)

تتغلّب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان، أصيلهم ودخيلهم، ويتم ذلك في حالتين:

- ***الحالة الأولى:***

أن يكون كلا الشعبين ضعيفًا حضاريًا، فإن تساويا في تخلّفهما الحضاري، فإنّ الغلبة ستكون للغة أكثرهما عددًا، سواء أكانت لغة الغالب أو المغلوب، لغة الأصيل أم لغة الدخيل، ذلك أنّه عندما ينعدم النوع يتحكّم الكم في مصير الأمور. ولا تحدث هذه النتيجة إلاّ إذا كانت اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين لغويتين متقاربتين.

مثال ذلك: عندما زحفت قبائل الأنجلو من أواسط أوربا إلى انجلترا لم تلبث لغتهم أن تغلبت على القبائل الكلتية للسكان الأصليين، بسبب أن عدد الكلتيين لم يكن شيئاً بجوار عدد الغزاة، كما أنّهما متساويان في تخلّفهما الحضاري، وينتميان إلى فصيلة اللغات الهندوأوروبية.

- ***الحالة الثانية:***

أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته، وأشدّ منه بأسًا وأوسع نفوذًا، ففي هذه الحالة يكتب النّصر للغته فتصبح لغة جميع السّكان، وإن قلّ عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب، ذلك أنّ التفوق الكيفي يكتسح أمامه أي تفوق كمي، على شريطة أن تدوم غلبته وقوته زمناً كافياً يمكن معه تحقيق نتيجة حاسمة للصراع اللغوي.

مثال ذلك: فتوحات العرب في صدر الإسلام للشام والعراق ومصر يواكبها اكتساح اللغة العربية لجميع اللغات التي كانت سائدة في تلك البقاع ، فاكتسحت القبطية في مصر والبربرية في شمال أفريقيا والكوشية في الشرق..

2.1. *أمّا الاحتمال الثاني:* (التعايش)

وهو عدم تغلّب إحدى اللغتين على الأخرى، ويحدث هذا فيما عدا الاحتمالين السابقين (كلاهما ضعيف حضاريًا/ أحدهما أقوى حضاريًا)، والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها:

– اللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية، مع أنّ الأولى كانت لغة الشعب الغالب، وذلك لأنّ الإغريق مع خضوعهم للرومان كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة.

– اللغة اللاتينية لم تقو على التغلّب على لغات أهل بريطانيا العظمى، على الرّغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو 150 سنة، وعلى الرّغم من أنّ الشعب الغالب كان أرقى كثيرًا من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته، وذلك لأنّ الجالية الرومانية في الجزر البريطانية لم تكن شيئًا مذكورًا ولم تمتزج امتزاجًا كافيًا بأفراد الشعب المغلوب.

2– أن يتجاور شعبان مختلفا اللّغة، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي:

ينتج عن هذا التجاور صراع يؤدي إلى واحدة من النتائج السابقة في العامل الأوّل:

1.2. في الاحتمال الأوّل: (التغلّب)

– الحالة الأولى:

إذا كانت نسبة النمو عند أحد الشعبين كبيرة لدرجة يشتدّ معها الضغط على حدود الشعب المجاور له، وتكثر الهجرات المؤقتة، عندها ستتغلّب لغة الشعب الكثيف سكانيًا على لغة المناطق المجاورة له، شريطة أن لا يكون أقلّ منها حضاريًا وثقافيًا وأدبيًا، ويتأكّد انتصاره إذا كان أرقى من أهل تلك المناطق بهذه الأمور.

مثال ذلك: لقد طغت اللغة الألمانية على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (سويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا) وقضت على لهجاتها الأولى.

– الحالة الثانية:

إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له، وعندها ستتغلّب لغة الشعب الأقوى نفوذًا، شريطة أن لا يقلّ عنه حضاريًا، ويتأكّد انتصاره إن كان الأرقى.

مثال ذلك: تغلّبت الفرنسية على المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان **والونيا** ببلجيكا، وأصبحت لغة 22% من سكان سويسرا.

– وعلى الأساس ذاته، تتغلّب في الدولة الواحدة لغة المقاطعة التي تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ.

مثال ذلك: نتيجة وقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) في مقاطعة (والونيا– بالجنوب) ذات اللّسان الفرنسي، ولأنّ سكان هذه المقاطعة يتمتّعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان في هذه الدولة، أخذت اللغة الفرنسية تتغلّب على الفلامندية (لغة القسم الشمالي من بلجيكا المسمّى فلاندر) وتنتقص من أطرافها.

– ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) في القسم الناطق بالألمانية، ولأنّ سكان هذا القسم يتمتّعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألّف منهم الأغلبية الساحقة، يتكلّم الألمانية في سويسرا نحو 70% من أهلها.

2.2. *أمّا الاحتمال الثاني*: (التعايش)

ويحدث هذا فيما عدا الحالتين السابقتين (الكثافة السكانية/ النفوذ)، وينتج عنها أن تبقى اللغتان معًا جنبًا إلى جنب، ويدخل في هذا الإطار معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة في العصر الحاضر.

***مثال ذلك*:**

– إنّ الجوار بين فرنسا، إنجلترا، ألمانيا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، لم يؤدّ إلى تغلّب لغة شعب منها على لغة شعب آخر، لأنّ احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلّب بالمجاورة.

– لم يؤدّ الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلّب لغة منها على أخرى.

– البرتغالية في البرازيل والإسبانية بالجمهوريات المجاورة لها بأمريكا الجنوبية (كولومبيا، البيرو، بوليفيا، البراغواي، الإيرغواي...)

الدرس الخامس:

الصراع اللغوي: مظاهره وآثاره

1. مراحل الصراع اللّغوي:

يحدّد علماء اللّغة لهذا الصراع مراحل، تظهر في كل مرحلة عوامل تساعد على انحلال اللّغة المقهورة، وتؤدي إلى القضاء عليها تدريجيًا، تتلخّص فيما يلي:

في المرحلة الأولى:

تطغى مفردات اللغة المنتصرة وتحل محل اللغة المقهورة شيئاً فشيئاً، وقد يكون الصراع بين اللغتين شديداً وطويل الأمد هنا يكون للغة المقهورة قدر واسعٌ من المفردات تدخل في اللغة الغالبة، وقد يكون الصراع ضعيفاً، فاللغة المغلوبة لا تبدي أي مقاومة في اللغة الغالبة.

في المرحلة الثانية:

تتغير مخارج الأصوات ويصبح نطقها أقرب لأصوات اللّغة الجديدة شيئاً فشيئاً، حتى تصبح على صورة تُطابق أو تُقارب التي هي عليها في اللّغة المنتصرة، وذلك بأن يتصرف المغلوب تصرف الغالب في النطق بالأصوات.

وهذه المرحلة تعد أخطر مراحل الصراع اللغوي، إذ يزداد فيها انحلال اللغة المغلوبة، ويشتد قربها من اللغة الغالبة.

في المرحلة الثالثة:

في هذه المرحلة تفرض اللّغة المنتصرة قواعدها وقوانينها اللّغوية الخاصة بالجمل والتراكيب، وبهذا تزول معالم اللّغة المقهورة وحينئذ تبدأ اللّغة المنتصرة في إحلال أخليتها واستعاراتها ومعانيها المجازية محل الأخيلة والاستعارات للغة القديمة التي تموت شيئاً فشيئاً .

ومهما يكن الأمر، فإنّ النصر لا يتم للغة من اللغات إلا بعد أمدٍ طويل، قد يصل أحياناً إلى أكثر من أربعة قرون، فالرومان أخضعوا بلاد الغال (فرنسا وسويسرا سابقًا) في القرن الأول الميلادي، ولكن لم تتم الغلبة للغة اللاتينية إلا في القرن الرابع.

2. أسس تغلّب اللّغة على غيرها:

خلاصة لما سبق، يمكننا القول إنّ اللغة لا تتغلّب على أخرى إلاّ بتحقّق القواعد الآتية:

1. أن تكون اللغة الغالبة، لغة شعب متحضّر، أرقى من الشعب المغلوب، في حضارته وثقافته، وأقوى منه سلطانًا وأوسع نفوذًا.

2. أن تبقى غلبة الغالب زمانًا كافيًا، مع استمرار قوّته، لتتمكّن اللغة الغالبة من بسط نفوذها، ويتمّ لها نصر حقيقي.

3. أن تكون هناك جالية كبيرة العدد والنفوذ، تقيم بصفة دائمة في بلاد الشعوب التي غلبت لغتها، وتمتزج بأفراد هذا الشعب، ولا تعيش إطلاقًا في عزلة منه.

4. أن تكون اللغتان: الغالبة والمغلوبة، من شعبة لغوية واحدة، أو من شعبتين متجاورتين.

3. أنواع الصّراع اللغوي:

يرى "بيتر هانس نيلد" أنّه بإمكاننا النّظر إلى الصراعات اللغوية المعاصرة في أوروبا وأمريكا الوسطى والغربية، وجنوب شرق آسيا وأجزاء من أفريقيا كأوضاع صراع لغوي طبيعي أو اصطناعي. ويمكن تحديد الفرق بينهما على النحو الآتي:

1.3. الصراع اللّغوي الطبيعي:

ويتمثّل في تلك الأوضاع التي كانت موجودة تقليديًا في الأغلبيات الأصلية والأقليات، مثل الصراع الموجود في كندا المتضمّنة للأقلية المتحدّثة بالفرنسية، وكذا بعض لغات الأهالي الأصليين. من هنا، فإنّ الصراعات اللغوية الطبيعية يمكن أن تصبح إشكالية عندما تستعمل الأيديولوجيا من الجانبين – ليس فقط الأغلبية ولكن الأقلية كذلك– لتقوية الخلافات التي توجد سلفًا، وأنّ التعايش السلمي بين المجموعات اللغوية يمكن أن يهدّد بسهولة عندما ترفع راية اللغة كرمز محدّد للشّعب.

2.3. الصراع اللّغوي الاصطناعي:

إنّ معظم الصراعات اللغوية المعاصرة هي نتيجة للوضع الاجتماعي المختلف والمعالجة التفضيلية للغة المهيمنة من طرف الحكومة. وفي هذه الحالات هناك مخاوف وإحباطات دينية واجتماعية واقتصادية ونفسية في المجموعة الضعيفة التي يمكن أن تكون المسؤولة عن الصراع اللغوي... وهكذا، تظهر معظم المشاكل اللغوية التي توجد في مجالات مختلفة (سياسية، اقتصادية، إدارية، تربوية) تحت عنوان صراع اللغة. وفي مثل هذه الحالات يستغلّ القادة السياسيون والاقتصاديون مفهوم الصراع اللغوي، متجاهلين الأسباب الضمنية الحالية، ويواصلون من (أعلى) تأجيج الصراع الذي تمّ تأجيجه من (تحت)، والنتيجة هي أنّ اللغة تتّخذ أهمية أكثر أفضل ممّا كانت عليه خارج الصّراع.

ملاحظة:

استفادت هذه المحاضرة من المراجع الآتية:

– ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، تحقيق: الشيخ أحمد مُحَمَّد شاكر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 2008.

– علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع، اللغة والمجتمع، عكاظ للنشر والتوزيع، ط4، 1983.

– لويس جان كالفي: حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة: حسن حمزة، مؤسسة مُحَمَّد بن راشد آل مكتوم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2008.

– رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997.

– بيتر هانس نيلد، الصراع اللغوي، ضمن كتاب: فلوريان كولماس، دليل السوسيولسانيات، ترجمة: خالد الأشهب وماجدولين النهيبي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.